من تواضع لله رفعه

عبد الملك القاسم

مصدر هذه المادة:

الكتيبات الإسلامية
www.ktibat.com

دار القاسم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الـــــذي له الكبريــــــاء في السـمـــــوات والأرض وهو العزيز الحكيم، والصــلاة والســلام على أشــرف الأنبيــاء والمرسلين وبعد:

فـــإن من صـــفات المؤمـــنين الإنابة والإخبـــات والتواضع وعـــدم الكـــبر. ومن استقرأ حياة نبي هذه الأمة يجد فيها القدوة والأسـوة، ومن تتبع حيـاة السـلف الصـالح رأى ذلك واضحًا جليًا.

وهـــذا هو الجـــزء «العشـــرون» من سلســلة **«أين نحن من هــؤلاء؟»** تحت عنـــوان: **«من تواضع لله رفعه»** أدعو الله عز وجل أن يزيننا بزينة الإيمـــان، وأن يجعلنا أذلة للمؤمـنين أعـزة على الكـافرين وأن يقينا شـرور أنفسـنا وسـيئات أعمالنـا. وصـــــــلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

عبد الملك بن محمد بن عبد

الرحمن القاسم

مدخل

قال الله تعـالى: ﴿**تِلْكَ الـدَّارُ الْآَخِـرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيـــدُونَ عُلُـــوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَـةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[1].

قال عكرمة: العلو: التجبر، وقال سـعيد بن جبـير: بغـير حـق، وقـال ابن جـريج: ﴿**لَا يُرِيــــدُونَ عُلُــــوًّا فِي الْأَرْضِ**﴾ تعظمًا وتجبرًا.

وعن علي رضي الله عنه قـــــــال: إن الرجل ليعجبه من شـــراك نعله أن يكـــون أجـود من شـراك نعل صـاحبه فيـدخل في قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ الـدَّارُ الْآَخِـرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَـــادًا وَالْعَاقِبَـــةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾؛ وهـــذا محمـــــول على ما إذا أراد بـــــذلك الفخر والتطاول على غيره[2].

وقـــال الله عز وجل حاثًا على مكـــارم

---

1 (?) سورة القصص، الآية: 83.
2 (?) تفسير ابن كثير 3/403.

الأخلاق ومحـــــذرًا من الكـــــبر والعجب: ﴿ **وَاخْفِضْ جَنَاحَـــكَ لِمَنِ اتَّبَعَـــكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[1]. قال الشيخ عبد الرحمن بن ســـعدي: بلين جانبـــك، ولطف خطابـــك، وتـــوددك إليهم، وحسن خلقـــك، والإحســـان التام بهم[2].

وقـــال تعـــالى حكاية عن لقمـــان عليه السـلام وهو يعظ ابنـه: ﴿**وَلَا تُصَعِّرْ خَـدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾[3].

قـال ابن عبـاس: لا تتكـبر، فتحقر عبـاد الله، وتعرض عنهم إذا كلموك[4].

ونجد في القــرآن الكــريم آيــات تمــدح المتواضعين وتتوعد المتكـبرين وتـبين أن لا فضل لأحد على أحد إلا بــالتقوى، قــال الله تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْـدَ اللَّهِ أَتْقَـاكُمْ**﴾

---

1 (?) سورة الشعراء، الآية: 215.
2 (?) تيسير الكريم الرحمن، ص548.
3 (?) سورة لقمان، الآية: 18.
4 (?) فتح القدير 4/301.

[1]. فـــالعبرة بـــالتقوى وليست بـــالعلم أو المال أو الحسب أو السلطان، فـإن اقـترن واحد من هـذه بـالتقوى كـان خـيرًا عظيمًا وإن عري عنها كان سببًا لاستحقاق العـذاب الأليم، فكم من مـــال أودى بصـــاحبه في المهالك، وكم من سـلطان يكـون في النـار مع فرعون وهامان، وكم من عالم تسعر به النار قبل غيره، فالتقوى هي قطب الــرحى في جميع الأمور، وليس لأي من تلك الأمور السالفة فضيلة إلا باقترانها بالتقوى[2].

ومن منـــــازل ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُـــــدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾[3]: منزلة «**التواضع**».

قــال الله تعــالى: ﴿**وَعِبَــادُ الــرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُــــونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا**﴾[4] أي بسكينة ووقار، متواضعين، غير أشــرين، ولا مرحين ولا متكبرين.

قال الحسن: علماء حلماء.

وقال محمد بن الحنفية: أصـحاب وقـار

---

1 (?) سورة الحجرات، الآية: 13.
2 (?) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا، ص12.
3 (?) سورة الفاتحة، الآية: 5.
4 (?) سورة الفرقان، الآية: 63.

وعفة لا يسفهون، وإن سفه عليهم حلموا[1].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: ذكر أن صفاتهم أكمل الصفات ونعوتهم أفضل النعوت، فوصفهم بأنهم يمشون على الأرض هونًا، أي ساكنين متواضعين لله وللخلق، فهذا وصف لهم بالوقار والسكينة، والتواضع لله ولعباده[2].

والتواضع علامة حب الله للعبد كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾[3].

قال ابن كثير رحمه الله: هذه صفات المؤمنين الكمل، أن يكون أحدهم متواضعًا

---

1 (?) مدارج السالكين، ص340.

2 (?) تفسير السعدي 5/593.

3 (?) سورة التوبة، الآية: 54.

لأخيه ووليه، متعززًا على خصمه وعدوه[1].

وقـال ﷺ: **«لا يـدخل الجنة من كـان في قلبه مثقـال ذرة من كـبر»** فقـال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسـنًا، ونعله حسنة؟ قال: **«إن الله جميل يحب الجمـال، الكـبر بطر الحـق، وغمط الناس»**[2].

وبطر الحق: هو دفعه ورده على قائلـه، أما غمط الناس: فهو احتقـارهم وازدراؤهم.

وعن عيــاض بن حمــار رضي الله عنه قال: قـال رسـول الله ﷺ: **«إن الله أوحى إليَّ أن تواضــعوا حــتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»**[3].

وقــال عليه الصــلاة والســلام: **«ألا أخبركم بأهل النـار؟ كل عتل جـواظ مستكبر»**[4].

---

1 (?) تفسير ابن كثير 2/73.
2 (?) رواه مسلم.
3 (?) رواه مسلم.
4 (?) متفق عليه.

وفي سيرته ﷺ دروس في التواضع:

فقد كان ﷺ يمر على الصبيان فيسلم عليهم.

وكانت الأمة تأخذ بيده ﷺ فتنطلق به حيث شاءت.

وكان ﷺ إذا أكل لعق أصابعه الثلاث.

وكان ﷺ يكون في بيته في خدمة أهله.

ولم يكن ﷺ ينتقم لنفسه قط.

وكان ﷺ يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب الشاة لأهله، ويعلف البعير ويأكل مع الخادم، ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويجيب دعوة من دعاه، ولو إلى أيسر شيء.

وكان ﷺ هين المؤنة، ليِّن الخلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلق الوجه بسامًا، متواضعًا من غير ذلة، جوادًا من غير سرف، رقيق القلب رحيمًا بكل مسلم، خافض الجناح للمؤمنين، لين الجانب لهم.

وكان ﷺ يعود المريض. ويشـهد الجنـازة، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد.

وكـان يـوم قريظة على حمـار مخطـوم بحبل من ليف على إكاف من ليف[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ يدعى إلى خـبز الشـعير والإهالة السـنخة فيجيب، ولقد كـان له درع عند يهـــــودي فما وجد ما يفكها حـــــتى مات»[2].

وكــــان من تواضـــعه ﷺ ما رواه أنس بقولـه: **«كـان ﷺ يـؤتى بـالتمر فيه دود فيفشه يخرج السوس منه»**[3].

وكـــان من دعائه ﷺ: **«اللهم أحيـــني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشـرني في زمرة المساكين»**[4].

---

1 (?) مـــدارج الســـالكين، ص341. وانظـــر: الشـــمائل المحمدية للترمـــذي، ص284 وما بعدها. وفي سـيرة الرسـول ﷺ مواقف عظيمة في التواضع ولين الجانب وحسن الخلق.

2 (?) رواه الترمذي.

3 (?) صحيح الجامع 1/271.

4 (?) الإحياء 3/361.

يقـــــول ابن الأثـــــير: أراد به التواضع والإخبــــات، وأن لا يكــــون من الجبــــارين المتكبرين[1].

ولهــذا قــالت عائشة رضي الله عنهــا: إنكم تغفلــــــون عن أفضل العبـــــــادات: التواضع[2].

قـــــال حمــــدون القصـــــار في تعريف التواضــــع: التواضع أن لا تــــرى لأحد إلى نفسك حاجة، لا في الدين ولا في الدنيا[3].

وعنــدما سـئل الفضـيل بن عيـاض عن التواضع قال: يخضع للحق، وينقاد له ويقبله ممن قاله.

وقيل: التواضع أن لا ترى لنفسك قيمة. فمن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب.

وقيل: التواضع: هو خفض الجنـاح، ولين الجانب.

وقيــل: هو أن لا يــرى لنفسه مقامًا ولا

1 (?) مدارج السالكين، ص344.
2 (?) رواه البخاري.
3 (?) رواه أبو داود وصححه الألباني.

حالاً، ولا يرى في الخلق شرًا منه.

وقـال ابن عطـاء: هو قبـول الحق ممن كـــان. والعز في التواضـــع، فمن طلبه في الكبر فهو كتطلب الماء من النار[1].

قال صاحب المنازل:

التواضع: أن يتواضع العبد لصولة الحق.

يعني: أن يتلقى سلطان الحق بالخضوع لـه، والـذل، والانقيـاد، والـدخول تحت رقه بحيث يكـــون الحق متصـــرفًا فيه تصـــرف المالك في مملوكـــه. فبهـــذا يحصل للعبد خلق التواضـع. ولهـذا فسر النـبي ﷺ الكـبر بضده فقال: «**الكبر بطر الحـق، وغمط الناس**».

«**فبطر الحق**» رده وجحـده، والـدفع في صـــدره؛ كـــدفع الســـائل. و«**غمط النـــاس**» احتقـــارهم وازدراؤهم. ومـــتى احتقرهم وازدراهم دفع حقوقهم، وجحـدها، واستهان بها.

ولما كان لصـاحب الحق مقـال وصـولة

---

[1] (?) مدارج السالكين، ص342.

كانت النفـوس المتكـبرة لا تقر له بالصـولة على تلك الصــولة الــتي فيهــا، ولا ســيما النفوس المبطلة فتصول على صــولة الحق بكبرها وباطلهــا. فكــان حقيقة التواضــع: خضوع العبد لصولة الحق، وانقياده لهـا، فلا يقابلها بصولته عليها[1].

ولعظم عقوبة التكبر والخيلاء حــتى في أمر يراه الناس يسـيرًا قـال رسـول الله ﷺ: **«من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»**[2].

وفي الحديث الآخر قـال رسـول الله ﷺ: **«لا يــدخل الجنة من كــان في قلبه مثقال ذرة من كبر»**[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: التكبر شر من الشـرك، فـإن المتكـبر يتكبر عن عبادة الله تعالى، والمشـرك يعبد

---

1 (?) مدارج السالكين، ص346.
2 (?) رواه البخاري.
3 (?) رواه مسلم.

الله وغيره[1].

وقال الفضيل عندما سـئل عن التواضع ما هو؟ قال: أن تخضع للحق وتنقاد له، ولو سـمعته من صـبي قبلتـه، ولو سـمعته من أجهل الناس قبلته[2].

وعلى هذا القياس قل أهل التواضع في زماننـا!! وهم أنـدر من الكـبريت الأحمـر! فتأمل من يقبل الحق من صـــــبي أو من جاهل أو فقير؟!

ولهذا قيل عن التواضع: من يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب.

قـال يوسف بن أسـباط: يجـزي قليل الـورع من كثـير العمـل، ويجـزي قليل التواضع من كثير الاجتهاد[3].

وقال يحيى بن كثير مفصلاً الأمر: رأس التواضع ثلاث: أن ترضى بالدون من شـرف

---

1 (?) المستدرك على مجموع فتـاوى ابن تيمية 1/16.
2 (?) الإحياء 3/362.
3 (?) الإحياء 3/361.

المجلس، وأن تبـدأ من لقيته بالسـلام، وأن تكره المدحة والسمعة والرياء بالبر[1].

وتأمل هــــذه الثلاث في نفسك وانظر أين مكانك الــــذي تحب في المجلس؟ أهو صــدر المجلس وتحب أن تعظم ويفسح لك ويشـار إليك بالأيـدي أم هو نهاية المجلس.. والتواضع وعدم حب الظهور؟

ثم تأمل في حــال الســلام تجد العجب في عدم إلقائه بحـرارة وشـوق خاصة على الفقراء والعمال والصغار!!

وثالثة الأثـافي حبك للمـدح والثنـاء، بل ربما -والعيـاذ باللــه- بـادرت في صــدر كل مجلس بـــــذكر تبرعك وصـــــيامك وحجك وجهدك وخدمتك لهذا الـدين ثم تعـرج على تعبك ونصبك لإصلاح الناس!

كـــان علي بن الحسن يقـــول: عجبت للمتكبر الفخور الذي كان بـالأمس نطفة ثم هو غدًا جيفة، وعجبت كل العجب لمن شك في الله وهو يـــرى خلقــــه، وعجبت كل

---

1 (?) التواضع والخمول، ص155.

العجب لمن أنكر النشـــأة الأولى، وعجبت كل العجب لمن عمل لدار الفناء وتــرك دار البقاء[1].

والمصـيبة العظمى رضى الإنســان عن نفسه واقتناعه بعلمه، وهذه محنة قد عمت أكثر الخلق؛

فترى اليهودي والنصراني يـرى أنه على الصواب، ولا يبحث ولا ينظر في دليل نبــوة نبينا ، وإذا سـمع ما يلين قلبه مثل القـرآن المعجز هرب لئلا يسمع.

وكذلك كل ذي هوى يثبت عليه، إما لأنه مــذهب أبيه وأهلــه، أو لأنه نظر نظـرًا أول فـرآه صـوابًا، ولم ينظر فيما يناقضــه، ولم يباحث العلماء ليبينوا له خطأه[2].

قـال الحسـن: هل تـدرون ما التواضـع؟ التواضـــع: أن تخــــرج من منزلك فلا تلقى مسلمًا إلا رأيت له عليك فضلاً[3].

ومن منا الآن يطبق هــذا القـــول على

---

1 (?) صفة الصفوة: 2/95.
2 (?) صيد الخاطر: ص592.
3 (?) التواضع والخمول: ص154.

نفسه! وينزلها تلك المنـزلة؟!

بل البعض يأخـــــذه العجب والتيه على عبـاد الله لـدنيا أو علم أو جـاه.. وكلها منح وعطايا من الله عز وجـــل.. ومثلما أعطاها إياه فهو سـبحانه قـادر على أن يسـلبها منه في طرفة عين!

عنـدما سـئل عبد الله بن المبـارك عن العجب؟ قال: أن ترى أن عندك شـيئًا ليس عند غيرك[1].

وقـــال أبو علي الجوزجـــاني: النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد، فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة، وإذا أراد الله تعالى به خيرًا لطف به في ذلك، فإذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع من نصـرة الله تعـالى، وإذا هـــــاجت نـــــار الحسد في نفسه أدركتها النصـــيحة مع توفيق الله عز وجـــل، وإذا هـــاجت في نفسه نـــار الحـــرص أدركتها

---

1 (?) تذكرة الحفاظ 1/278.

القناعة مع عون الله عز وجل[1].

قـــــال ابن الحــــــاج: من أراد الرفعة فليتواضع لله تعــالى، فــإن العــزة لا تقع إلا بقدر النزول، ألا ترى أن الماء لما نــزل إلى أصل الشــجرة صــعد إلى أعلاهــا؟ فكــأن سـائلاً سـأله: ما صـعد بك هنـا، أعـني في رأس الشـجرة وأنت تحت أصـلها؟! فكـأن لسان حاله يقول: من تواضع لله رفعه[2].

والفـــــرق بين التواضع والمهانـــــة: أن التواضع يتولد من بين العلم بالله ســـبحانه ومعرفة أســـمائه وصـــفاته ونعـــوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلالـــــه، ومن معرفته بنفسه وتفاصــيلها وعيــوب عمله وآفاتهــا، فيتولد من بين ذلك كله خلق هو التواضـــع، وهو انكسـار القلب لله وخفض جنـاح الـذل والرحمة بعباده فلا يرى له على أحد فضــلاً ولا يــرى له عند أحد حقًــا، بل يــرى الفضل للناس عليه والحقوق لهم قبلـه، وهـذا خلق

---

1 (?) الإحياء 3/362.

2 (?) المدخل لابن الحاج 2/122.

إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه ويكرمه ويقربه.

أما المهانة: فهي الدناءة والخسة وبـذل النفس وابتـــــــــذالها في نيل حظوظها وشـــــهواتها، كتواضع الســـــفل في نيل شـــهواتهم، وتواضع المفعــول به للفاعــل، وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه، فهذا كله ضعة لا تواضع، والله سبحانه يحب التواضع ويبغض الضعة والمهانة[1].

قـــال ســـفيان بن عيينـــة: من كـــانت معصيته في شهوة فارج له التوبة، فإن آدم عليه السـلام عصى مشـتهيًا فغفر لـه، فـإذا كانت معصيته من كبر فـاخش عليه اللعنـة، فإن إبليس عصى مستكبرًا فلعن[2].

وآفة حب الثنـــاء والمـــدح الـــتي يحبها البعض بل ويبحث عنها ويحث عليها - ما موقعها بين حـال السـلف؟! وعلى أي حـال كانوا يقبلونها؟! وأي منزلة ينـزلونها؟!

---

1 (?) كتاب الروح، ص273.

2 (?) مختصر منهاج القاصدين، ص247.

قـال مطـرف بن عبد اللـه: ما مـدحني أحد قط إلا تصاغرت إلى نفسي[3].

وما ذاك إلا لمعرفتهم بحقـارة أنفسـهم في جنب الله، وتواضعهم لجلاله، ومحاسـبة أنفسهم ومعرفتهم بتقصيرهم وزللهم!!

أخي المسلم:

عجبت لمن يعجب بصورته، ويختال في مشيته، وينسى مبدأ أمـره. إنما أوله لقمـة، ضـمت إليها جرعة مـاء، فـإن شـئت فقل كسيرة خبز، معها تمرات، وقطعة من لحم، ومذقة من لبن، وجرعة من مـــــاء، ونحو ذلك، طبخته الكبـد، فـأخرجت منه قطـرات مـــني، فاســـتقر في الأنثـــيين، فحركتها الشـهوة، فصـبت في بطن الأم مـدة، حـتى تكاملت صورتها، فخـرجت طفلاً تتقلب في خرق البول.

وأما آخـــره: فإنه يلقى في الـــتراب، فيأكله الدود، ويصير رفاتًا تسفيه السوافي، وكم يخرج تراب بدنه من مكـان إلى مكـان

---

3 (?) صفة الصفوة 3/223.

آخـــر، ويقلب في أحـــوال، إلى أن يعـــود فيجمع. هذا خبر البدن.

إنما الــروح الــتي عليها العمــل، فــإن تجوهرت بالأدب، وتقومت بـالعلم، وعـرفت الصــانع، وقـامت بحقــه، فما يضــرها نقض المــركب. وإن هي بقيت على صــفتها من الجهالة شـــابهت الطين، بل صـــارت إلى أخس حالة منه[1].

أخي المسلم:

حقيق بالتواضع دنياه قوت[2]

قــال أحمد بن الــورد: ولي الله إذا زاد جاهه زاد تواضــــعه، وإذا زاد ماله زاد سخاؤه، وإذا زاد عمره زاد اجتهاده[3].

وقــال ابن المبــارك: رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الـــدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضـل، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في الــدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل.

1 (?) صيد الخاطر، ص457.
2 (?) التبصرة 1/2.
3 (?) صفة الصفوة 2/395.

أخي الحبيب:

كيف هو قلبك؟ أمع الفقراء والمساكين والمعدومين؟! محص نفسك بقول يحيى بن معـاذ: حبك الفقـراء من أخلاق المرسـلين، وإيثـارك مجالسـتهم من علامة الصـالحين، وفـــــــرارك من صـــــــحبتهم من علامة المنافقين[1].

ولا تحقرن أحدًا فإن من هؤلاء الضعفاء والمســاكين من له منزلة عظيمة عند الله عز وجل كما قـــال رســـول الله : **«رب أشــعث مــدفوع بــالأبواب لو أقسم على الله لأبره»**[2].

وعنه أنه قـــال: **«هل تنصـــــرون وترزقون إلا بضعفائكم؟»**[3].

قال خالد بن معدان: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى الناس في جنب الله أمثـال الأباعر ثم يرجع إلى نفسه فيكـون لها أحقر

---

1 (?) الإحياء 4/211.
2 (?) رواه مسلم.
3 (?) رواه البخاري.

حاقر[1].

أخي المسلم:

من اتقى الله تعالى تواضع لـــه، ومن تكـبر كـان فاقـدًا لتقـواه، ركيكًا في دينـه، مشـتغلاً بـدنياه، فـالمتكبر وضـيع وإن رأى نفسه مرتفعًا على الخلـــق، والمتواضع وإن رُئِي وضيعًا فهو رفيع القدر.

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر
عـلى صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه
إلى طبقـات الجـو وهو وضيع

ومن استشـــعر التواضع وعاشه كـــره الكبر وبواعثه[2].

وتأمل في حـــال من تلبسه الشـــيطان في حالة واحـــدة من حـــالات الكـــبر يظنها بعض الناس يسـيرة وهي عند الله عظيمـة، فقد قـــال رســـول الله ﷺ: «**بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسـه، مرجل**

---

1 (?) السير 4/539.
2 (?) التواضع والخمول، ص12.

رأسه[1]، يختال في مشيته، إذ خسف الله بـــــه، فهو يتجلجل[2] في الأرض إلى يوم القيامة»[3].

وتأمل في حالات كثـيرة من المتكـبرين من الرجال والنساء لجدة مـركب أو شـهرة ثوب أو لجاه ومنصب! وتلحظ بعض النــاس تتغــير شخصــيته وطريقة حديثه وخطــوات ممشــاه إذا لبس جديـدًا أو اقتـنى فانيًا من حطام الدنيا!!

وقد ذم الله عز وجل الكـــبر في آيـــات كثيرة فقال تعالى: ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آَيَـاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾[4].

وقـال تعـالى: ﴿**كَـذَلِكَ يَطْبَـعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**﴾[5]. ومن تدبر القرآن خشي على نفسه من هذه الآفة العظيمة.

---

1 (?) مرجل رأسه: أي ممشطه.
2 (?) يتجلجل: أي يغوص وينزل.
3 (?) متفق عليه.
4 (?) سورة الأعراف، الآية: 146.
5 (?) سورة غافر، الآية: 35.

ولنا في حـــــال أبي بكر رضي الله عنه وهو الصـــديق خليفة رســـول الله ﷺ عـــبرة وعظة ودرس وتربيـــــة: عن ابن أبي مليكة قـال: كـان ربما سـقط الخطـام من يد أبي بكر الصـديق، فيضـرب بـذراع ناقته فينيخها فيأخذه، قال: فقالوا له: أفلا أمرتنا نناولكه؟ قـال: إن حِبِّي ﷺ أمـرني أن لا أسـأل النـاس شيئًا[1].

ويقال: أرفع ما يكـون المـؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه، وأوضع ما يكـــون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه.

وقال زيـاد النمـري: الزاهد بغـير تواضع كالشجرة التي لا تثمر.

وكـــان الســـلف رحمهم الله يجاهـــدون أنفســـهم ويحقرونها في جنب الله عز وجل حتى أن أحدهم يتأهب للمنادي!

قال مالك بن دينـار: لو أن مناديًا ينـادي بباب المسجد: ليخرج شركم رجلاً، والله ما كان أحد يسبقني إلى البـاب إلا رجلاً بفضل

---

1 (?) صفة الصفوة 1/253.

قوة أو سعي.

قال: فلما بلغ ابن المبارك قوله قال: بهذا صار مالك مالكًا.

وقال الفضيل: من أحب الرئاسة لم يفلح أبدًا[1].

أخي الحبيب: أين نحن من هؤلاء؟!

قال علي بن ثابت: ما رأيت سفيان الثوري في صدر المجلس قط، إنما كان يقعد إلى جانب الحائط ويستند إلى الحائط ويجمع بين ركبتيه[2].

وعندما قيل لأبي عبد الله - إمام أهل السنة أحمد بن حنبل: ما أكثر الداعين لك؟ فتغرغرت عينه، وقال: أخاف أن يكون هذا استدراجًا.

لو قيلت هذه الكلمة لبعض الناس اليوم.. لأطلق ضحكة تجلجل وأتبعها ما قام به من أعمال في سبيل هذا الدين وعد كل شاردة وواردة! وكل ذلك رفعة ومباهاة مع

---

1 (?) الإحياء 3/361.

2 (?) صفة الصفوة 3/147.

جهل وغفلة.

قال يـونس بن عبيـد: دخلنا على محمد بن واسع نعـوده فقـال: وما يغـني عـني ما يقول الناس، إذا أخذ بيـدي ورجلي فـألقيت في النار؟!

وقال يونس: قلت لأبي عبد الله (يعـني أحمد بن حنبل) أن بعض المحدثين قال لي: أبو عبد الله لا يزهد في الدراهم وحدها، قد زهد في الناس. فقال أبو عبد الله: ومن أنا حـتى أزهد في النـاس! النـاس يريـدون يزهدون فيَّ.

وقال أبو عبد الله: أسأل الله أن يجعلنا خيرًا مما يظنون، ويغفر لنا ما لا يعلمون[1].

ومن تواضع أهل الطاعة والعبادة وعدم تـزكيتهم أنفسـهم ما قاله محمد بن واسع عن نفسه وهو علم من الأعلام وعابد من العبـاد: لو كـان للـذنوب ريح ما جلس إلي أحد[2].

وكـان أيـوب السـختياني يقـول: إذا ذكر

---

1 (?) الورع لأحمد بن حنبل، ص152.

2 (?) السير 120/6، صفة الصفوة 3/268.

الصالحون كنت عنهم بمعزل[3].

وقال الشافعي: أرفع الناس قدرًا من لا يــرى قــدره، وأكــثرهم فضــلاً من لا يــرى فضله[1].

ولهــذا التواضع وإنــزال النفس منزلتها قـال أبو حـاتم: الـواجب على العاقل لـزوم التواضع ومجانبة التكـــــبر، ولو لم يكن في التواضع خصلة تحمله إلا أن المرء كلما كثر تواضـعه ازداد بـذلك رفعـة، لكـان الـواجب عليه أن لا يتزيَّا بغيره.

ولأثر الكــبر الســيء وســوء فعله في الأنفس والعقــول قــال محمد ابن الحســين بن علي: ما دخل قلب امـــرئ شـــيء من الكـبر قط إلا نقص من عقله بقـدر ما دخل من ذلك قل أو كثر[2].

أخي الحبيب:

التواضع تواضعان: أحـدهما محمـود، والآخر مذموم.

---

[3] (?) تذكرة الحفاظ 10/131.

[1] (?) السير 10/99.

[2] (?) الإحياء 3/358.

فالتواضع المحمود: تـرك التطـاول على عباد الله، والإزراء بهم.

والتواضع المــذموم: هو تواضع المـــرء لذي الدنيا رغبة في دنياه.

فالعاقل يلزم مقارقة التواضع المـذموم على الأحـــوال كلهـــا، ولا يفـــارق التواضع المحمود على الجهات كلها[1].

قـــــــال ابن القيم رحمه الله في كتابه مدارج السالكين في منزلة الخشوع:

ولقد شــهدت من شــيخ الإســلام ابن تيمية قـدس الله روحه من ذلك أمـرًا لم أشـاهده من غيره، وكـان يقـول كثـيرًا: ما لي شـيء ولا مـني شـيء ولا في شـيء، وكـان كثـيرًا ما يتمثل بهـذا البيت:

أنا المكدي وابن المكدي وهكذا أبي وجدِّي

هذه إجاباتهم وهـذا تواضـعهم وهم أئمة هــذا الــدين وعلمـــاء زمـــانهم، ولهم البلاء والجهاد المعلوم المعـروف.. فما يقـول من هو دونهم علمًا وعبادة؟!

وكــان إذا أثــني عليه -رحمه اللــه- في

---

1 (?) روضة العقلاء، ص59.

وجهه يقـــــول: والله إني إلى الآن أجـــــدد إسـلامي كل وقت وما أسـلمت بعد إسـلامًا جيدًا.

قـال محمد بن زهـير: أتيت أبا عبد الله (أحمد بن حنبل) في شيء أسأله عنه فأتاه رجل فسأله عن شيء، أو كلمه في شــيء، فقـال لـه: جـزاك الله عن الإسـلام خـيرًا فغضب أبو عبد الله وقـال لـه: من أنا حـتى يجزيـني عن الإسـلام خـيرًا، بل جـزى الله الإسلام عني خيرًا[1].

إن التواضع من ... وبه التقي إلى
ومن العجائب ... في حاله أهو

وفي كلمــات واضــحة لأمثالنا من أهل الذنوب والمعاصي، أصحاب الكسل والغفلة قـال ابن المبـارك: إذا عـرف الرجل قــدر نفسه يصير عند نفسه أذل من الكلب[2].

قـــال ســـفيان: إذا عـــرفت نفسك لم يضرك ما قال الناس[3].

---

1 (?) طبقات الحنابلة 1/298.
2 (?) حلية الأولياء: 8/168.
3 (?) الزهد للإمام أحمد، ص507.

أخي المسلم:

أول ذنب عصى الله به أبـــوا الثقلين: الكـبر والحـرص. فكـان الكـبر ذنب إبليس اللعين، فآل أمره إلى ما آل إليه. وذنب آدم على نبينا وعليه السـلام: كـان من الحـرص والشــهوة، فكــان عاقبته التوبة والهدايــة، وذنب إبليس حمله على الاحتجــاج بالقـــدر والإصـرار، وذنب آدم أوجب له إضـافته إلى نفسه، والاعتراف به والاستغفار.

فأهل الكـــبر والإصـــرار، والاحتجــــاج بالأقــدار: مع شـيخهم وقائـدهم إلى النــار: إبليس.

وأهل الشـهوة: المسـتغفرون التـائبون المعترفون بالذنوب، الذين لا يحتجون عليها بالقدر: مع أبيهم آدم في الجنة.

ونعم الله عز وجل الـــتي يغـــدقها على العبــاد قد تتحــول من نعمة إلى نقمة ومن خير إلى شر إذا صـرفت في غـير مصـرفها الصحيح وطريقها الشرعي، قال قتـادة: من أعطي مالاً أو جمالاً أو ثيابًا أو علمًـا؛ ثم لم

يتواضع فيه كان عليه وبالاً يوم القيامة[1].

ولأن مما شاع في هذه الأيـام المباهـاة بالمآكل والمشــارب والملابس والمــراكب حـتى أصـبحت شـغل الكثـير وأضـاعت من الأموال الكثير.

وقد قال رسـول الله ﷺ: **«البـذاذة من الإيمان، البذاذة من الإيمان، البــذاذة من الإيمان»**[2].

قــــال عبد الله (ابن أحمد بن حنبــــل) سألت أبي قلت: ما البذاذة؟ قـال: التواضع في اللباس[3].

وأثر التواضع في الـــــدنيا محســــوس ملموس.

قـال أبو حـاتم رضي الله عنـه: التواضع يرفع المرء قدرًا، ويعظم له خطرًا، ويزيــده نبلاً[4].

وقد حرصوا على طلب مرضـاة الله عز

---

1 (?) التواضع والخمول، ص142.

2 (?) رواه الحاكم وابن ماجه وأبو داود.

3 (?) الزهد للإمام أحمد، ص20.

4 (?) روضة العقلاء، ص60.

وجل بالتواضع ونفي الكـبر والبعد عنه وأخذ النفس على الحق.

قـــال بكر بن عبد الله (المـــزني): إذا رأيت من هو أكـبر منك فقـل: هـذا سـبقني بالإيمان والعمل الصالح فهو خير مـني، وإذا رأيت من هو أصـغر منك فقـل: سـبقته إلى الذنوب والمعاصي فهو خير مني، وإذا رأيت إخوانك يكرمونك ويعظمونك فقـــل: هـــذا فضل أخــذوا بــه، وإذا رأيت منهم تقصــيرًا فقل: هذا ذنب أحدثته.

هـذا في أمر الآخـرة أما في أمر الــدنيا وشرفها فكما قال عروة بن الزبير: التواضع أحد مصائد الشرف، وكل ذي نعمة محسود عليها إلا التواضـع. لأنها تثمر ثمـرة يشـرف المـــرء بها على قومه ومن حولـــه؛ وذلك طاعة لله عز وجل، وامتثالاً لأمره، ومعرفة بنعمته وفضله.

قـــال بعض الحكمـــاء: ثمـــرة القناعة الراحة، وثمرة التواضع المحبة.

أخي الحـــــــبيب: أين نحن من هؤلاء؟

كان الحسن بن علي رضي الله عنهمـا: يمر بالسؤال وبين أيديهم كسـر، فيقولـون: هلم إلى الغـداء يا ابن رسـول اللـه، فكـان يـــنزل ويجلس على الطريق ويأكل معهم ويـــــركب، ويقـــــول: إن الله لا يحب المستكبرين[1].

وكان عثمان رضي الله عنه يلي وضــوء الليل بنفســه، فقيل لـــه: لو أمـــرت بعض الخـــدم فكفـــوك، قـــال: لا. الليل لهم يستريحون فيه[2].

وعن عمـــــرو بن قيس: أن عليًا رضي الله عنه رئي عليه إزار مرقـوع فعـوتب في لبوسـه، فقـال: يقتـدي به المـؤمن، ويخشع القلب[3].

قال نوح عليه السلام لابنه سام: يا بـني لا تـدخلن القـبر وفي قلبك مثقـال ذرة من الشرك بالله فإنه من يـأت الله مشـركًا فلا حجة له، ويا بني لا تدخلن القــبر وفي قلبك

1 (?) الإحياء 2/262.
2 (?) تأريخ الخلفاء، ص153.
3 (?) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا ص165.

مثقال ذرة من الكبر فإن الكبريـاء رداء الله عز وجل فمن ينـــــــازع الله رداءه يغضب عليــه، ويا بــني لا تــدخلن القــبر وفي قلبك مثقـــــــال ذرة من القنط فإنه لا يقنط من رحمة الله إلا ضال[1].

وللمســرفين والمســرفات والمبــذرين والمبذرات في فستان يلبس ليلة واحدة، أو حلي للمباهـــــاة والمفـــــاخرة؛ إليهم نصح الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز لأحب وأقرب الناس إليه.

فقد بلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنًا له اشترى خاتمًا بألف درهم، فكتب إليه عمــر: بلغني أنك اشتريت فصًــا بــألف درهم، فــإذا أتاك كتابي، فبع الخاتم وأشبع به ألف بطن، واتخذ خاتمًا بــدرهمين، واجعل فصه حديــدًا حينيًا، واكتب عليه: «رحم الله امرءًا عــرف قدر نفسه».

ولو فعل البعض مثل ذلك أو قريبًا منه لما مـــات جـــائع مســـلم في آســـيا.. ولما

---

1 (?) كتاب الزهد للإمام أحمد، ص88.

تنصـــرت أم مســـلمة في أفريقيـــا.. ولما اغتصــبت فتــاة مســلمة في أوربــا.. والله المستعان.. البعض يهنأ بالمراكب والفــرش والحرير وإخوانه يموتـــون جوعًا وهو يـــرى ويسـمع.. ووسـائل الإعلام تقيم عليه الحجة ليلاً ونهـــارًا .. فما عـــذره أمـــام الله عز وجل؟!

قــال الحســن: والله لقد أدركت أقوامًا ما طوي لأحدهم في بيته ثوب قـط، ولا أمر في أهله بصـنعة طعـام، وما جعل بينه وبين الأرض شيء قط[1].

والنفس المؤمنة إذا ما تشــــــــــبعت بالمعاني الإسـلامية والأخلاق الفاضـلة، فلن تـــترك خلق التواضع إلى الكـــبر، وذلك لأن الكبر ينافي تلك المبـادئ الـتي تـربى عليها الإنسان المسـلم، فالمسـلم يـرفض التكـبر لأنه إما أن يكـــون على العبـــاد أو على الله تبارك وتعـالى، وهو في كليهما مـذموم، بل ومتوعد فاعله بصنوف العذاب كما جاء ذلك

---

1 (?) حلية الأولياء 2/146.

في الآيــات القرآنية والأحــاديث الشــريفة، قــال تعــالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِـرِينَ**﴾[1]، وقـــال: ﴿**إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْـــتَكْبِرِينَ**﴾[2] وغير ذلك من الآيات[3].

فالتكبر على الخالق إذا يكــون بمنازعته إحدى صفاته من كبريـاء وعظمة أو بـالتكبر عن عبادتـــه. أما التكـــبر على الخلق فهو صنوف كثيرة تـوهم صـاحبها بأنه أعلى رتبة من البشر، ويعامل نفسه على تلكم الوتيرة حـــتى يفضي به ذلك إلى مــــرض نفسي خطــير يــدعى بمــرض العظمــة. فمن تلك الصنوف أن يتكـبر العبد بحسـبه ونسـبه، أو بقوته وسطوته إن كان ذا سلطان أو بماله، أو بجماله، أو بعلمه، فهذه الأمور تكـون من دواعي الكـــبر عند من لم يخالط الإيمـــان قلبه ولا اطمأنت بالسكينة نفسه.

والتواضع لله عز وجل على

---

1 (?) سورة غافر، الآية: 60.

2 (?) سورة النحل، الآية: 23.

3 (?) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا، ص10.

ضربين:

أحدهما: تواضع العبد لربه عندما يـأتي من الطاعات غـير معجب بفعلـه، ولا راء له عنده حالة يوجب بها أسـباب الولايـة، إلا أن يكــون المــولى عز وجل هو الــذي يتفضل عليه بذلك، وهذا التواضع هو السبب الـدافع لنفس العجب عن الطاعات.

قال رسول الله ﷺ: «**ما زاد الله عبـدًا بعفو إلا عــزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**»[1].

قــال النــووي: «**وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**» فيه وجهان:

أحدهما: يرفعه الله في الــدنيا، ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلـة، ويرفعه الله عند الناس، ويجل مكانه.

والثاني: أن المـراد ثوابه في الآخـرة، ورفعه فيها بتواضعه في الدنيا[2].

والتواضع الآخــر: هو ازدراء المـــرء نفسه واستحقاره إياها عند ذكره ما قــارف

---

1 (?) رواه مسلم.

2 (?) شرح مسلم للنووي 16/143.

من المآثم حتى لا يـرى أحـدًا من العـالم إلا ويـرى نفسه دونه في الطاعـات وفوقه في الجنايات[1].

أخي المسلم:

كل ما تــراه من مبــاهج الــدنيا وزينتها وقضها وقضيضــها إنما هو ظل زائل وراكب مرتحل.

قال الإمام أحمد رحمه الله تعـالى: إنما هو طعـام دون طعـام، ولبـاس دون لبـاس، وإنها أيام قلائل[2].

خلقان لا أرضى طريقهما
بـطر الغـني ومـذلة الدهر
فإذا غنيت فلا تكن بطرًا
وإذا افتقرت فته على الدهر[3]

كــان الربيع بن خــثيم إذا قيل له كيف أصـبحت يا أبا يزيـد؟ قـال: أصـبحنا ضـعفاء مذنبين، نأكل أرزاقنا وننتظر آجالنا.

أخي الحــــــــبيب: أين نحن من

1 (?) روضة العقلاء، ص60.
2 (?) الآداب الشرعية لابن مفلح 2/239.
3 (?) البداية والنهاية 11/164.

هؤلاء؟!

لما خــــــــرج أحمد بن حنبل إلى عبد الــرازق انقطعت به النفقــة، فــأكرى نفسه من بعض الجمــالين إلى أن وافى صـــنعاء، وقد كــان أصـحابه عرضـوا عليه المواسـاة فلم يقبل من أحد شيئًا[1].

وهـــذا الصـــديق أبو بكر رضي الله عنه صاحب رسول الله ورفيق جهـاده ودعوته والمبشر بالجنة يقـــول: وددت أني شـــعرة في جنب عبد مؤمن[2].

وقال عروة بن الزبير رضي الله عنهما: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قربة ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين: لا ينبغي لك هــذا. فقــال: لما أتــاني الوفــود ســـامعين مطيعين، دخلت نفسي نخـــوة، فأردت أن أكسرها[3].

وعن ميمـون بن مهـران قـال: أخـبرني

---

1 (?) صفة الصفوة 2/341، السير 11/206.

2 (?) الزهد للإمام أحمد، ص162.

3 (?) مدارج السالكين 2/330.

الهمـداني أنه رأى عثمـان بن عفـان رضي الله عنه على بغلة وخلفه عليه غلامه نائل وهو خليفة.

وقال أيضًا: رأيت عثمان رضي الله عنه نائمًا في المسـجد في ملحفـة، ليس حوله أحد وهو أمير المؤمنين.

أما ذلك الصحابي صاحب المال الوفـير والـــثروة الطائلة والإنفـــاق الواسع عبد الرحمن بن عـوف رضي الله عنه فإنه كـان لا يعـرف من بين عبيـده، من التواضع في زيه وملبسه.

قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه
خلق، وجيب قميصه مرقوع[1]

فلقد خلق الله الإنسـان وكلامه وفضـله على كثـير ممن خلق تفضـيلاً، وألبسه حلة الإيمان، وزينه بـأنواع الفضـائل وذلك تتميمًا لتكريمه وتفضيله.

والفضـائل تلك هي أخلاق رفيعة تحمل صـاحبها على السـير بين النـاس بسـيرة

---

1 (?) تأريخ الخلفاء، ص249.

حسنة من صدق، وكرم، ومروءة، وحب في الله، وحب الخير، وغير ذلك من الآداب.

والتواضع أحد تلك الفضائل، بل وركيزة مهمة من ركــائز التربية الإيمانية في حيــاة المسلم، ذلك لأنه يضعه في المكــان اللائق به -أعــني مكــان العبوديــة- فلا يبــارح هــذا المكان ولا يعتدي عليه.

أفلا ترى أن أكـثر من نبـذوا هـذا الخلق إنما هم في الحقيقة معتـــدون على مقـــام الألوهية؟ لأن الكبريــاء والعظمة لله وحـده، ولا يجــوز للعبد أن يتصف بهما أو بإحــداهما فقد قال فيما يرويه عن ربـه: «**الكبريـاء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نـــازعني واحـــدًا منهما ألقيته في جهنم**» فليس بغــريب إذًا أن نجد التواضع من ســيماء الصــالحين، ومن أخص خصــال المؤمـــنين المتقين، ومن كـــريم ســـجايا العلماء[1].

عن المبـارك بن فضـالة قـال: كـان بين

---

[1] (?) تأريخ الخلفاء، ص249.

عمر بن الخطـاب رضي الله عنه وبين رجل كلام في شيء، فقال له الرجل: اتق الله يا أمـير المؤمـنين، فقـال له رجل من القـول: أتقول لأمير المؤمنين اتق الله؟!

فقـــال عمـــر: دعه فليقلها لي، نعم ما قال.

ثم قـــال عمـــر: لا خـــير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نقبلها[1].

وقـال رجل لأبي حنيفة رحمه اللـه: اتق الله!!

فانتفض واصفر، وأطـرق وقـال: جـزاك الله خيرًا، ما أحوج النـاس كل وقت إلى ما يقول هذا[2].

الله أكـــبر! الأول خليفة والآخر عـــالم زمانه وهـذا جـوابهم، واليـوم يخشى البعض وهو يقـول ناصـحًا لعامة النـاس: اتقـوا الله أن يصـــيبه من بـــذاءة ألســـنتهم وفحش ألفاظهم.

ولست أرى السعادة جمع مال

---

1 (?) تأريخ عمر لابن الجوزي، ص176.

2 (?) السير 6/415.

ولكـن التـقي هـو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرًا
وعنـد الله لـلأتقى مـزيـد

أخي المسلم:

واعلم أن الزمان لا يثبت على حال كما قال عز وجل: **﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾**[1].

فتارة فقر، وتارة غنى، وتارة عز، وتارة ذل، وتـارة يفـرح المـوالي، وتـارة يشـمت الأعادي.

فالسعيد من لازم أصلاً واحــدًا على كل حــال، وهو تقــوى الله عز وجــل، فإنه إن اسـتغنى زانتـه، وإن افتقر فتحت له أبـواب الصـبر، وإن عـوفي تمت النعمة عليـه، وإن ابتلي حملته، ولا يضـره إن نـزل به الزمـان أو صعد، أو أعراه أو أشبعه أو أجاعه.

لأن جميع تلك الأشــياء تــزول وتتغــير، والتقوى أصل السلامة حارس لا ينـام، يأخذ باليد عند العثرة، ويوافق على الحدود.

والمتكبر من غرته لذة حصلت مع عـدم

[1] (?) سورة آل عمران، الآية: 140.

التقوى، فإنها ستحول وتخليه خاسرًا.

ولازم التقوى في كل حال، فإنك لا ترى في الضـــيق إلا الســـعة، وفي المـــرض إلا العافيـــة. هـــذا نقـــدها العاجـــل. والآجل معلوم[1].

قال يحيى بن معين: ما رأيت مثل أحمد بن حنبـل، صـحبناه خمسـين سـنة ما افتخر علينا بشـــيء مما كـــان فيه في الصـــلاح والخير[2].

وكـــان رحمه الله يقـــول: نحن قـــوم مساكين..

وقـــال إســـماعيل بن إســـحاق الثقفي: قلت لأبي عبد الله (أحمد بن حنبـل) أول ما رأيتـــه: يا أبا عبد اللـــه، ائـــذن لي أن أقبل رأسك، فقال: لم أبلغ أنا ذاك.

رحمه الله وأجـزل مثوبتـه.. صـبر على المحن وثبت على الفتنة التي أصابته وكـان إمامًا للمسلمين وهو مع هذا يقـول: لم أبلغ

---

1 (?) صيد الخاطر، ص181.

2 (?) مناقب الإمام أحمد، ص334.

أنا ذاك!

وهـذا سـبط رسـول الله وهو يـؤدي شعيرة عظيمة خاشعًا متـذللاً.. تـرك الكـبر والبطر والمباهاة والفخر..

فقد حج الحسـين بن علي عشر حجج ماشيًا ونجبه تقاد إلى جنبه[1].

وعن عمر بن ثابت قال: لما مـات علي بن الحسـين بن علي فغسـلوه، فجعلـوا ينظرون إلى آثار سواد في ظهـره، فقـالوا: ما هذا؟ فقالوا: كـان يحمل جـراب الـدقيق ليلاً على ظهـره يعطيه فقـراء أهل المدينة[2].

أخي المسلم:

قـال عمر رضي الله عنـه: إن العبد إذا تواضع لله رفع حكمته وقـال: انتعش رفعك الله، وإذا تكبر وعـدا طـوره رهصه الله في الأرض وقـال: اخسأ خسـأك اللـه، فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس حقير حتى أنه

---

1 (?) روضة العقلاء، ص62.

2 (?) انظر: السير 4/139.

لأحقر عندهم من الخنـزير[1].

وذكر أن العلاء بن زيـاد قـال له رجـل: رأيت كأنك في الجنة، فقال لـه: ويحـك، أما وجد الشـيطان أن أحـدًا يسـخر به غـيري وغيرك؟[2].

وعندما مر المهلب على مالك بن دينـار متبخـــترًا، فقـــال: أما علمت أنها مشـــية يكرهها الله إلا بين الصفين؟ فقال المهلب: أما تعرفني؟ قـال: بلى، أولك نطفة مـذرة، وآخـــرك جيفة قـــذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة، فانكسر وقال: الآن عرفتـني حق المعرفة[3].

قال الفقيه السمرقندي: اعلم أن الكـبر من أخلاق الكفـار والفراعنـة، والتواضع من أخلاق الأنبيـاء والصـالحين؛ لأن الله تعـالى وصف الكفـار بـالكبر فقـال: **﴿إِنَّهُمْ كَـانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ**

---

1 (?) الإحياء 3/361.

2 (?) حلية الأولياء 2/245.

3 (?) السير 5/362.

﴾[1]، وقال: ﴿**وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَـانَ وَلَقَـــدْ جَـــاءَهُمْ مُوسَـــى بِالْبَيِّنَـــاتِ فَاسْـــتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَـــانُوا سَـــــــابِقِينَ**﴾[2]، وقــــــال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَسْـتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَـادَتِي سَـيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِـــرِينَ**﴾[3]، وقـــال: ﴿**ادْخُلُـــوا أَبْـــوَابَ جَهَنَّمَ خَالِـــدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْـــوَى الْمُتَكَبِّرِينَ**﴾[4]، وقـــال: ﴿**إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ**﴾[5].

وقد مدح الله عباده المؤمـنين بالتواضع فقال: ﴿**وَعِبَادُ الـرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُـونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا**﴾[6]، يعـني متواضـعين، ومـــدحهم بتواضـــعهم وأمر نبيه ﷺ بالتواضع فقال: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُـؤْمِنِينَ**﴾[7]،

---

1 (?) سورة الصافات، الآية: 35.
2 (?) سورة العنكبوت، الآية: 39.
3 (?) سورة غافر، الآية: 60.
4 (?) سورة غافر، الآية: 76.
5 (?) سورة النحل، الآية: 32.
6 (?) سورة الفرقان، الآية: 63.
7 (?) سورة الحجر، الآية: 88.

وقــال: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَـكَ لِمَنِ اتَّبَعَـكَ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ**﴾[1]، ومـدح النـبي ﷺ بخلقه فقـــال: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُـــقٍ عَظِيمٍ**﴾[2]. وكان خلقه التواضع لأنه روي في الخـبر أنه كان يركب الحمار، ويجيب دعوة المملـوك، فثبت أن التواضع من أحسن الأخلاق، وكان الصــــالحون من قبل أخلاقهم التواضــــع، فوجب علينا أن نقتدي بهم رضي الله تعالى عنهم[3].

ومن أنواع الكبر المهلكة:

أولاً: الكــــــبر على الله عز وجل مثل قـــول فرعـــون: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**﴾[4] إذ استنكف أن يكون عبدًا لله.

ثانيًا: الكبر على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها على الانقيـــــاد لبشر مثل سائر الناس، ولذا لا تطاوعه نفسه للانقيــاد للحق والتواضع للرسل كما حكى الله

---

1 (?) سورة الشعراء، الآية: 215.
2 (?) سورة القلم، الآية: 4.
3 (?) تنبيه الغافلين، ص97.
4 (?) سورة النازعات، الآية: 24.

قـــولهم: ﴿أَنُـــؤْمِنُ لِبَشَـــرَيْنِ مِثْلِنَا﴾[1]، وقولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾[2].

ثالثًـا: التكـبر على العبـاد، وذلك بـأن يستعظم نفسه ويسـتحقر غـيره ويـزدريهم. ويكون التكبر على العباد بأمور دنيوية منها:

* **العلم:** وبعض من آتاه الله علمًا دينيًا أو دنيويًا يسـتعظم نفسه ويسـتحقر النـاس وينظر إليهم نظـــرة البهـــائم وأنه ينبغي أن يخدموه، وأن يكرمـوه وأن يكونـوا أذلاء بين يديـه.. وهو يفـرح بكل ذلك مع كـثرة جدله وحبه للمـــــراء والمنـــــاظرة والغلبة على الخصوم بحق أو باطل.

* **العبادة:** بأن يرى أن النـاس هـالكين ويـــرى نفسه ناجيًـــا، ولـــذا يـــرى أنه أحق بالزيـــــــارة والتوسع له في المجلس وذكر زهده وعلمه وورعه.

* **التكبر بالحسب والنسب:** فالــذي له نسب شـريف يسـتحقر من ليس له ذلك

---

1 (?) سورة المؤمنون، الآية: 47.

2 (?) سورة إبراهيم، الآية: 19.

النسب وإن كـان أرفع منه علمًا وعملاً، وقد يتكـبر بعضـهم فـيرى أن النـاس له أمـوال وعبيـد، وكـان من عـادات الجاهلية التفـاخر بالأحساب والأنساب.

* **التفـاخر بالجمـال:** وذلك أكـثر ما يجـــري بين النســـاء ويـــدعو إلى التنقص والغيبة والاستهزاء.

* **الكـــبر بالمـــال:** وذلك يجـــري بين الملــــوك في خـــزائنهم ومن التجـــار في بضـائعهم. وتأمل في حـال قـارون وهو في ماله ثم أين انتهى به الكبر والعيـاذ باللـه: ﴿ **فَخَـرَجَ عَلَى قَوْمِـهِ فِي زِينَتِـهِ قَـالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْـلَ مَا أُوتِيَ قَـارُونُ إِنَّهُ لَـذُو حَـظٍّ عَظِيمٍ**﴾[1].

* **الكبر بالقوة:** وذلك في أهل القـوة الجســـمية والعســـكرية وذلك بـــالبطش بالضعفاء وإهانتهم وتعذيبهم.

* التكـبر بالأتبـاع والأنصـار والتلامـذة

---

1 (?) سورة القصص، الآية: 79.

والعشيرة والأقارب والبنين.

قال أبو سليمان: لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه.

وقال أبو يزيد: ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر، فقيل له: فمتى يكون متواضعًا؟ قال: إذا لم ير لنفسه مقامًا ولا حالاً. وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه عز وجل ومعرفته بنفسه.

قال وهب بن منبه: آية المنافق أنه يكره الذم ويحب الحمد[1].

ولقد كثر ذلك في زماننا والله المستعان، فأصبح البعض يحب المدح والثناء ويسر به ويكرم من يقوم له بذلك ويغدق عليه الأموال، وبعض المدراء والرؤساء يقرب المداحين المنافقين ويبعد الناصحين المحبين!! والمسلم إن مدح بحق فهو لا يؤجر على هذا المدح.. فما بالك بمن يمدح بباطل ويحرص على أن تجمع له

---

1 (?) الزهد للإمام أحمد، ص517.

الكلمات وتصف له الحروف؟!

قال أبو سـليمان: لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي ما قـدروا عليه.

وقـال عـروة بن الـورد: التواضع أحد مصـائد الشـرف. وكل نعمة محسـود عليها صاحبها إلا التواضع[1].

ولا شك أن من علامة التواضع أن يكره المـرء أن يـذكر بـالبر والتقـوى والصـلاح والتقى بين الناس.

هـــذا إما أهل الســـنة أحمد بن حنبل رحمه الله عندما ذكر عنده أخلاق الـورعين فقال: أسأل الله أن لا يمقتنـا، أين نحن من هؤلاء؟[2]

وهذا علم آخر من أعلام السلف لا يرى لنفسه حقًا على غـــــيره مع علمه وورعه وطاعته وعبادته!!

قـــال أحمد بن عبد الله العجلي: آجر سفيان نفسه من جمال إلى مكـة، فـأمروه

1 (?) الإحياء 3/362.
2 (?) السير 11/226.

أن يعمل خــبزة، فلم تجئ جيــدة، فضــربه الجمال، فلما قدموا مكة، دخل الجمال فإذا ســفيان قد اجتمع حوله النــاس، فســأل، فقالوا: هذا سفيان الثوري، فلما انفض عنه الناس تقـدم الجمـال إليه وقـال: لم نعرفك يا أبا عبد الله، قال: من يفسد طعام الناس يصبه أكثر من ذلك[1].

1 (?) السير 7/275.

أخي المسلم:

تواضع إذا ما نلت في النـــــاس رفعة

فـإن رفـيع القوم من يتواضع

قـال أبو حـاتم رضي الله عنـه: أفضل النـاس من تواضع عن رفعـة، وزهد عن قـدرة، وأنصف عن قـوة، ولا يـترك المـرء التواضع إلا عند استحكام التكـبر، فلا يتكـبر على الناس أحد إلا بإعجابه بنفسـه، وعجب المـرء بنفسه أحد حمـاد عقلـه، وما رأيت أحدًا تكبر على من دونه إلا ابتلاه الله بالذلة لمن فوقه[1].

وتأمل أخي الحبيب في صـورة التواضع العجيبة من خير هـذه الأمة بعد رسـول الله أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وقد ضربا أروع الأمثلة على جلالة قـــدرهما وعظم منزلتهما:

قـال علمـاء السـير: كـان أبو بكر رضي الله عنه يحلب للحي أغنـامهم، فلما بويع

1 (?) روضة العقلاء، ص62.

قـــــالت جارية من الحي: الآن لا يحلب لنا منائح دارنا، فسـمعها فقـال: بل أحلبها لكم وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه، عن خلق كنت فيه، فكان يحلب لهم[1].

وهـذا ثـاني الخلفـاء الراشـدين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضرب لنا مثلاً في التواضـع، قـال طلحة بن عبيد اللـه: خـرج عمر ليلة في سـواد الليل فـدخل بيتًـا، فلما أصبحت ذهبت إلى ذلك البيت، فـإذا عجـوز عمياء مقعدة، فقلت لها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟ فقالت: إنه يتعاهدني مدة كذا وكـذا، يـأتيني بما يصـلحني، ويخـرج عـني الأذى، فقلت في نفســي: ثكلتك أمك يا طلحـــة، أعثرات عمر تتبع[2].

ومن خصال المتكبرين التي نراها ونشاهدها:

- جر الثيـاب بطـرًا وريـاء، والتفـاخر بها والتعـالي على النـاس بكل ملبـوس غـالي

---

1 (?) صفة الصفوة 1/258.

2 (?) البداية والنهاية 7/139.

الثمن.

- أن لا يمشي إلا ومعه أحد يمشي خلفه.

- أن لا يزور أحدًا تكبرًا على الناس.

- أن يستنكف من جلوس أحد إلى جانبه أو مشيه معه.

- أن لا يتعاطى بيده شغلاً في بيته.

- أن لا يحمل متاعه من سوقه إلى بيته.

- ذكر ما لديه من الأموال والدور والقصور تكبرًا ومباهاة.

وجماع ذلك كله أن يرى أنه فوق الناس وهم دونه سواء في أمر معين كالعلم أو المال أو الجمال أو الحسب والنسب أو بها جميعًا.

ومن تأمل في تلك علم أنها ربما تزول في لحظات؛ فالعلم إلى زوال، والمال إلى نهاية، والجمال إلى شيخوخة أو قبل ذلك بطارق من طوارق الزمن.. ولنا في ما ذكره الله عز وجل عن صاحب المال والغنى عبرة وتذكرة: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا**

رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَــــــدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَــــابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْــــلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَـيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَـهُ ثَمَـرٌ فَقَـالَ لِصَـاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْـكَ مَـالًا وَأَعَـزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَـذِهِ أَبَـدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّـاعَةَ قَائِمَـةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْـرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَـالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَـرْتَ بِالَّذِي خَلَقَــكَ مِنْ تُــرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَــةٍ ثُمَّ سَــوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُــوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْـرِكُ بِـرَبِّي أَحَـدًا * وَلَـوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَــكَ قُلْتَ مَا شَــاءَ اللَّهُ لَا قُــوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَـدًا * فَعَسَــى رَبِّي أَنْ يُــؤْتِيَنِ خَيْــرًا مِنْ جَنَّتِــكَ وَيُرْسِــلَ عَلَيْهَا حُسْــبَانًا مِنَ السَّــمَاءِ فَتُصْــبِحَ صَــعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْـبِحَ مَاؤُهَا غَـوْرًا فَلَنْ تَسْـتَطِيعَ لَـهُ طَلَبًا * وَأُحِيـطَ بِثَمَـرِهِ فَأَصْـبَحَ يُقَلِّبُ

كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَـةٌ عَلَى عُرُوشِــهَا وَيَقُــولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾[1].

أخي الحبيب:

لا تفخرن بما ... عـلى سواك وخف
فأنت في الأصل ... في الدنيا لفخار[2]

قال علي بن ثابت: لو لقيت سـفيان الثـوري في طريق مكة ومعك فلســان تريد أن تتصــدق بهما وأنت لا تعـرف سـفيان ظننت أنك ستضـعها في يــده. وما رأيت ســفيان في صــدر المجلس قــط، إنما كـان يقعد إلى جـانب الحائط ويسـتند إلى الحائط ويجمع بين ركبتيه.

إذا شئت أن تزداد ... والعجبا[3]

قال سعيد بن عامر: قيل إن يــونس بن عبيد قال: إني لأعد مائة خصـلة من خصـال البر ما في خصلة واحدة[4].

وتأمل في المجــالس إلى من يزكــون

---

1 (?) سورة الكهف، الآيات: 32-42.
2 (?) شذرات الذهب 6/248.
3 (?) التواضع والخمول، ص12.
4 (?) السير 6/291.

أنفسـهم ويمجـدون أفعـالهم حبًا في الثنـاء وطمعًا في الشــهرة.. وقد كــثر هــذا في الناس لقلة العلم الشرعي وضـعف التقـوى ومحبة الدنيا.

قال ابن وهب: سمعت مالكًا يقـول: إن الرجل إذا أخذ يمدح نفسه ذهب بهاؤه[1].

وقال الفضيل: إن استطعت أن لا تكون محـدثًا ولا قارئًا ولا متكلمًـا. إن كنت بليغًـا، قــالوا: ما أبلغــه، وأحسن حديثــه، وأحسن صــــوته، ليعجبك ذلك فتنتفخ، وإن لم تكن بليغًا ولا حسن الصوت، قــالوا: ليس يحسن يحــدث، وليس صــوته بحســن، أحزنك ذلك وشق عليك فتكــــون مرائيًـــا، وإذا جلست فتكلمت فلم تبــال من ذمك ومن مـــدحك، فتكلم[2].

قــــال شــــعبة: ربما ذهبت مع أيــــوب (السختياني) لحاجة، فلا يدعني أمشي معه، ويخرج من هاهنا وهاهنا، لكي لا يفطن له.

وتأمل حـال الأخيـار وأهل العلم الأبـرار

1 (?) السير 8/109.
2 (?) السير 8/109.

فإنهم يهربون من كل مادح!

قال أحمد بن حنبل: كان سفيان الثوري إذا قيل له إنه رئي في المنـــام، يقـــول: أنا أعرف بنفسي من أصحاب المنامات[1].

ولقد يكفيك فيها أيها الطالب قوت
ولعمري عن قليل يموت[2]

ســـأل رجل الإمـــام مالكًا عن مســـألة فقال: لا أحسنها، فقال الرجل: إني ضـربت إليك من كذا وكذا لأسألك عنهـا!! فقـال له مالـــك: إذا رجعت إلى مكانك وموضـــعك فأخبرهم أني قد قلت لك إني لا أحسنها[3].

وقد كـثر المفتـون في زماننا وبعضـهم يبـــادر بـــالجواب قبل أن ينتهي الســـؤال.. ولمعرفة عظم مصــــــيبته وجهله ليعلم أنه يجيب عن الله ورســـــوله فلينظر بمــــاذا يجيب؟

خـــرج عبد الله بن مســـعود ذات يـــوم فاتبعه ناس، فقال لهم: ألكم حاجة؟ قـالوا:

---

1 (?) السير 7/252.
2 (?) ديوان الإمام علي، ص54.
3 (?) حلية الأولياء 6/323.

لا ولكن أردنا أن نمشي معك. قال: ارجعـوا فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع[1].

وقــال الحســن: كنت مع ابن المبــارك يومًا فأتينا على ســقاية والنــاس يشــربون منها، فـدنا منها ليشـرب ولم يعرفه النـاس فزحمـوه ودفعـوه، فلما خـرج قـال لي: ما العيش إلا هكذا. يعـني حيث لم نعـرف ولم نوقر.

وقال صـالح بن أحمد (بن حنبـل): كـان أبي لا يدع أحدًا يستقي له الماء لوضوئه[2].

ونتيجة الكــبر والتعــالي على النـــاس معروفة مرذولة في الــدنيا والآخـــرة، عن عمر بن شـيبة قـال: كنت بمكة بين الصـفا والمروة فــرأيت رجلاً راكبًا بغلته وبين يديه غلمــان وإذا هم يعنفــون النــاس، قــال: ثم عـــدت بعد حين دخلت بغـــداد فكنت على الجسـر، فـإذا أنا برجل حـاف حاسر طويل الشــعر، قــال: فجعلت أنظر إليه وأتأملــه، فقــــال لي: ما لك تنظر إليَّ؟ فقلت لـــه:

---

1 (?) صفة الصفوة 1/406.

2 (?) طبقات الحنابلة 1/12.

شـــبهتك برجل رأيته بمكـــة، ووصـــفت له الصفة، فقال له: أنا ذلك الرجـل، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: إني ترفعت في موضع يتواضع فيه النـــاس فوضـــعني الله حيث يترفع الناس[1].

قال هشـام بن حسـان: ذكـروا التواضع عند الحسن وهو سـاكت حـتى إذا أكـثروا عليه قـال لهم: أراكم قد أكـثرتم الكلام في التواضع.

قالوا: أي شيء التواضع يا أبا سعيد؟

قال: يخرج من بيته فلا يلقى مسـلمًا إلا ظن أنه خير منه.

ومن التواضع الذلة لله عز وجل وخوف التقصير والزلل..

كـــان بكر بن عبد الله إذا رأى شــيخًا قـال: هـذا خـير مـني، عبد الله قبلي، وإذا رأى شابًا قال: هـذا خـير مـني، ارتكبت من الذنوب أكثر مما ارتكب[2].

قال عبد الله بن مسعود: لو تعلمـون ما

1 (?) الإحياء 3/362.
2 (?) حلية الأولياء 2/226.

أعلم من نفسي حثيتم على رأسي التراب.

وعنـدما قيل للإمـام أحمد بن حنبـل: ما أكـثر الـداعين لـك! فتغرغـرت عينه وقـال: أخاف أن يكون هذا استدراجًا[3].

وروي عن ابن مســـعود رضي الله عنه أنه قـــــال: الهلاك في شـــــيئين: العجب، والقنـوط. وإنما جمع بينهما لأن السـعادة لا تنـــال إلا بـــالطلب والتشـــمير، والقانط لا يطلب، والمعجب يظن أنه قد ظفر بمـراده فلا يسعى.

قال مطرف رحمه اللـه: لأن أبيت نائمًا وأصــبح نادمًــا، أحب إليَّ من أن أبيت قائمًا وأصبح معجبًا.

وأعلم أن العجب يـدعو إلى الكـبر، لأنه أحد أسـبابه، فيتولد من العجب الكـبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة، وهذا مع الخلق.

فأما مع الخالق، فإن العجب بالطاعـات نتيجة اســـــتعظامها، فكأنه يمن على الله تعـالى بفعلهـا، وينسى نعمته عليه بتوفيقه

---

3 (?) الآداب الشرعية 3/437.

لهـا، ويعمى عن آفاتها المفسـدة لهـا. وإنما يتفقد آفـات الأعمـال من خـاف ردها دون من رضيها وأعجب بها.

والعجب إنما يكــون بوصف كمــال من علم أو عمل، فإن انضاف إلى ذلك أن يرى حقًا له عند الله إدلالاً، فــــــالعجب يحصل باســتعظام ما عجب بــه، والإدلال يــوجب توقع الجـــــزاء، مثل أن يتوقع إجابة دعائه وينكر رده[1].

وكان حوشب يبكي ويقـول: بلغ اسـمي مسجد الجامع.

وعن عطاء بن مسلم أحسبه قال: كنت وأبو إســـحاق ذات ليلة عند ســـفيان وهو مضـــطجع، فرفع رأسه إلى أبي إســـحاق فقال: إياك والشهرة.

قال: وقال أبو مسـهر: ما بينك وبين أن تكـــون من الهـــالكين إلا أن تكـــون من المعروفين[2].

وقـــال عبد الله بن المبـــارك: كن محبًا

1 (?) مختصر منهاج القاصدين، ص255.

2 (?) التواضع والخمول، ص13.

للخمـــول كراهية الشـــهرة، ولا تظهر من نفسك أنك تحب الخمول فترفع نفسك[1].

أخي المسلم:

قـــال علي رضي الله عنه : تبـــدل لا تشـــهر، ولا ترفع شخصك لتـــذكر وتعلم، وأكـثر الصـمت تسـلم، تسر الأبـرار وتغيظ الفجار.

وقال أيوب: ما صدق الله عبد إلا ســره أن لا يشعر بمكانه[2].

وقـــال ســعيد بن عبد الغفـــار: كنت أنا ومحمد بن يوسف الأصـبهاني، فجـاء كتـاب محمد بن العلاء بن المســيب من البصـــرة إلى محمد بن يوسف فقـــرأه، فقـــال لي محمد بن يوســف: ألا تـــرى إلى ما كتب به محمد بن العلاء؟ وإذا فيـــــه: يا أخي، من أحب الله أحب أن لا يعرفه الناس[3].

وأثر الخـــير على الإنســـان واضح جلي خاصة إذا كـــان من معـــدن زكي كما قـــال

---

1 (?) صفة الصفوة 4/137.

2 (?) التواضع والخمول، ص119.

3 (?) التواضع والخمول، ص119.

يحيى بن خالد البرمكي: الشريف إذا تنسك تواضع، والسفيه إذا تنسك تعاظم.

وقال يحـيى بن معـاذ موضـحًا المعاملة بالمثل لمن اســتدرجه الشــيطان وأطــاح بتواضـعه: التكـبر على ذي التكـبرِ عليك بما له تواضع.

ويقال: التواضع في الخلق كلهم حسن، وفي الأغنيــاء أحســن, والتكــبر في الخلق كلهم قبيح، وفي الفقراء أقبح.

ويقـــــال: لا عز إلا لمن تـــــذلل لله عز وجل، ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عز وجل، ولا أمن إلا لمن خاف الله عز وجل، ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه من الله عز وجل[1].

أخي المسلم:

هـاك مواقف جميلة وعــبر ناصــعة من ســلف هــذه الأمة وحرصــهم على التواضع والبعد عن الشهرة والثناء.

عن خالد بن معدان قال: كان يحـيى بن سعيد إذا كثرت حلقته قام مخافة الشهرة.

قـــال ليث عن أبي العالية أنه كـــان إذا

---

1 (?) الإحياء 3/362.

جلس إليه أكثر من ثلاثة قام.

وقـــال أبو بكر بن عيـــاش: ســـألت الأعمش كم رأيت أكـــــــثر ما رأيت عند إبراهيم؟ قال: أربعة، خمسة.

قــال أبو بكــر، ما رأيت عند حــبيب بن أبي ثابت غلمة ثلاثة قط[1].

وقـال: قـال بشر بن الحـارث: لا أعلم رجلاً أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح.

وقـال: لا يجد حلاوة الآخـرة رجل يحب أن يعرفه الناس[2].

حقيق بالتواضع ... ويكفي المرء من
فما للمرء يصبح ذا ... وحرص ليس تدركه
صنيع مليكنا حسن ... وما أرزاقه عنا
فيا هذا سترحل ... السكوت[3]

قـــال مالك بن دينـــار: إن القلب إذا لم يكن فيه حـزن خـرب كما يخـرب الـبيت إذا لم يكن فيه ساكن. وإن قلوب الأبـرار تغلي بأعمال البر وإن قلوب الفجار تغلي بأعمال

---

1 (?) التواضع والخمول، ص122.
2 (?) التواضع والخمول، ص130.
3 (?) البداية والنهاية 8/12.

الفجـور. والله يـرى همـومكم، فـانظروا ما همومكم رحمكم الله[1].

وليتبد كل قـــــارئ ويظهر همه ومنتهى أملــه؟! أهو لــدنيا فانية ودار زائلة وكرسي متحرك؟! أم هو هم الدين ورفعته والـدعوة إليه والصبر على ذلك!

مر بالحسن شـاب عليه بـزة له حسـنة فـدعاه فقـال لـه: ابن آدم معجب بشـبابه محب لشـمائله، كـأن القـبر قد وارى بـدنك وكأنك قد لاقيت عملــك، ويحــك! داو قلبك فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم[2].

وحـــال المتكـــبر تـــدعوه إلى رد الحق وعدم قبوله وهذه عين فساد القلب وخبثه. قـال رسـول الله لرجـل: «**كل بيمينك**» قـــال: لا أســـتطيع، فقـــال النـــبي : «**لا استطعت ما منعه إلا الكبر**» فما رفعها إلى فيه[3].

ورأى محمد بن واسع ولــــده يختـــــال

---

1 (?) روضة العقلاء، ونزهة الفضلاء، ص27.

2 (?) الإحياء 3/359.

3 (?) رواه مسلم.

فــدعاه وقــال: أتــدري من أنت؟ أما أمك فاشتريتها بمائتي درهم. وأما أبوك فلا أكـثر الله في المسلمين مثله!

ورأى ابن عمر رجلاً يجر إزاره فقـــال: إن للشـــــــــــــــيطان إخوانًا - كررها مرتين أو ثلاثًا[1].

يا مظهر الكبر	**انظر خلاك فإن**
لو فكر الناس فيما	**ما استشعر الكبر**
هل في ابن آدم	**وهو بخمس من**
أنف يسيل وأذن	**والعين مرفضة**
يابن التراب	**ومشروب[2]**

وثـــوب الشـــهرة قد يكـــون ثوبًا رديئًا ليظهر الإنســـــان حاله أنه من الزهـــــاد والصـــالحين!! رأى ابن عمر على ابنه ثوبًا قبيحًا دونًا فقــال: لا تلبس هــذا، فــإن هــذا ثوب شهرة[3].

أخي الحبيب:

---

1 (?) الإحياء 3/359.
2 (?) أدب الدنيا والدين، ص233.
3 (?) التواضع والخمول، ص129.

كيف حالك مع الفقـــراء والمســـاكين والمعدمين؟! هـذا سـبط رسـول الله ﷺ وقد حــاز الشــرف الرفيع والنسب العــالي ومع هذا يتواضع وهو أهل لذلك:

عن الحسـين بن علي رضي الله تعـالى عنهما أنه مر بمسـاكين وهم يـأكلون كسـرًا لهم على كســاء فقــالوا: يا أبا عبد اللـــه، الغــذاء، قــال: فــنزل وقــال: إنه لا يحب المسـتكبرين، فأكل معهم، ثم قـال لهم: قد أجبتكم فـأجيبوني، فـانطلقوا معه فلما أتـوا المنـــزل قــال لجاريتــه: أخــرجي ما كنت تدخرين[1].

وذكر عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعــالى أنه أتــاه ذات ليلة ضــيف فلما صـلى العشـاء وكـان يكتب شـيئًا والضـيف عنده كاد السراج أن ينطفئ، فقال الضيف: يا أمــير المؤمــنين، أقــوم إلى المصــباح فأصلحه؟ قـال: ليس من مـروءة الرجل أن يستعمل ضيفه. قال: أفأنبه الغلام؟ قال: لا،

---

1 (?) تبينه الغافلين، ص95.

هي أول نومة نامها، فقـام عمر وأخذ البطة فملأ المصباح، فقال الضـيف: قمت بنفسك يا أمـير المؤمـنين؟ قـال: ذهبت وأنا عمـر، ورجعت وأنا عمر وخير النـاس عند الله من كان متواضعًا.

وقال قيس بن أبي حازم: لما قدم عمر بن الخطـــاب إلى الشـــام تلقـــاه علماؤها وكبراؤها فقيـل: اركب هـذا الـبرذون يـرك النـاس، فقـال: إنكم تـرون الأمر من ههنـا، إنما الأمر من ههنا وأشار بيده إلى السماء، خلوا سبيلي.

وروي في رواية أخـــرى أن عمر رضي الله تعـــــــــالى عنه جعل بينه وبين غلامه مناوبـــة، فكـــان يـــركب الناقة ويأخذ الغلام بزمام الناقة ويسير مقـدار فرسخ ثم يـنزل ويـــــركب الغلام ويأخذ عمر بزمــــام الناقة ويسير مقدار فرسـخ، فلما قربا من الشـام كانت نوبة ركوب الغلام، فركب الغلام وأخذ عمر بزمــام الناقــة، فاســتقبله المــاء في الطريـــق، فجعل عمر يخـــوض في المـــاء

ونعله تحت إبطه اليســرى وهو آخذ بزمــام الناقـة، فخـرج أبو عبيـدة بن الجـراح وكـان أميرًا على الشام وقال: يا أمـير المؤمـنين، إن عظماء الشام يخرجــون إليك فلا يحسن أن يــروك على هــذه الحالــة، فقــال عمر رضي الله تعالى عنه: إنما أعزنا الله تعـالى بالإسلام فلا نبالي من مقالة الناس[1].

وقال عروة بن الزبير رضي الله عنهما: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قربة ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين، لا ينبغي لك هــذا، فقــال: لما أتــاني الوفــود ســـــامعين مطيعين دخلت نفسي نخــــوة فأردت أن أكسرها.

وولي أبو هريـرة رضي الله عنه إمـارة، فكــــان يحمل حزمة الحطب على ظهــــره ويقول: طرقوا للأمير[2].

وقــال أنس: كــان بين كتفي عمر أربع رقــاع وإزاره مرقــوع بــأدم. وخطب عمر على المنـــبر وعليه إزار فيه اثنتا عشـــرة

1 (?) تنبيه الغافلين، ص97.
2 (?) مدارج السالكين، ص343.

رقعة[1].

وقـــال مجاهد في قوله تعـــالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾[2]: أي يتبختر.

ودخل ابن السماك على هـارون فقـال: يا أمير المؤمـنين، إن تواضـعك في شـرفك أشرف لك من شرفك، فقـال: ما أحسن ما قلت! فقال: يا أمير المؤمنين إن امرءًا آتاه الله جمـالاً في خلقته وموضـعًا في حسـبه وبسط له في ذات يـــده فعف في جماله وواسى من ماله وتواضع في حسـبه - كتب في ديوان الله من خالص أوليـاء الله فـدعا هارون بدواة وقرطاس وكتبه بيده.

وكـان سـليمان بن داود عليهما السـلام إذا أصبح تصـفح وجـوه الأغنيـاء والأشـراف حـــتى يجيء إلى المســـاكين فيقعد معهم ويقول: مسكين مع مساكين.

وقـــال بعضـــهم: كما تكـــره أن يـــراك الأغنياء في الثياب الدون فكذلك فــاكره أن

---

1 (?) البداية والنهاية 7/148.

2 (?) سورة القيامة، الآية: 33.

يراك الفقراء في الثياب المرتفعة[1].

وقال سليم بن حنظلة: بينا نحن حول أبي بن كعب نمشي خلفه إذ رآه عمر، فعلاه، فقال: انظر يا أمير المؤمنين ما تصنع؟! فقال: إن هذا ذلة للتابع وفتنة للمتبوع[2].

وقال جرير بن عبد الله: انتهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنطع له وقد جاوزت النطع فسويته عليه، ثم إن الرجل استيقظ فإذا هو سلمان الفارسي، فذكرت له ما صنعت فقال لي: يا جرير، تواضع لله في الدنيا فإنه من تواضع في الدنيا رفعه الله يوم القيامة. يا جرير أتدري ما ظلمة النار يوم القيامة؟ قلت: لا، قال: إنه ظلم الناس بعضهم في الدنيا[3].

وقال رجاء بن حيوة: قومت ثياب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو يخطب باثني عشر درهمًا. وكانت قباء وعمامة

1 (?) الإحياء 3/361.
2 (?) التواضع والخمول، ص123.
3 (?) الإحياء 3/361.

وقميصًا وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة[1].

نعم هذا تواضع الخليفة الأموي الذي ملأ الأرض عدلاً وزان حياته بالزهد والورع رحمه الله.

قيل: أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتممها عليك.

وتأمل أخي الحبيب في قول كعب: ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع بها درجة في الآخرة، وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقًا من النار يعذبه إن شاء الله أو يتجاوز عنه[2].

أخي المسلم:

هذا حديث الصادق الصدوق الذي لا ينطق عن الهوى اجعله على رأسك وأمام

---

1 (?) مدارج السالكين، ص344.

2 (?) الإحياء 3/361.

عينيك حيث قـــال: **«ما زاد الله عبـــدًا بعفو إلا عــزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»**[1].

رزقنا الله التواضـــع، وألزمنا جـــادة المؤمنين، وجعلنا ووالــدينا وذرياتنا وأزواجنا من الـذين لا خـوف عليهم ولا هم يحزنـون.
وصـــــلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهرس

---

1 (?) رواه مسلم.